الصلابي: العثمانيون دخلوا ليبيا استجابة لأهلها ونهضوا بها (مقابلة)

الخميس 9 يناير 2020 07:01 م

العثمانيون شكلوا نواة الدولة الليبية المركزية الحديثة وشجعوا الصحافة ونهضوا بالقضاء والتعليم والزراعة والتجارة والعمران ولم يكن حكمهم احتلالًا

قال المفكر والمؤرخ الليبي، علي الصلابي، إن العثمانيين دخلوا ليبيا بطلب من أهلها، لتحرير بلدهم من الإسبان ثم فرسان مالطا، مؤكدًا أن الإصلاحات العثمانية ساهمت في نهضة ليبيا لاحقًا.

وأضاف الصلابي، في مقابلة مع الأناضول،: "في عام 1510، هاجم الأسطول الإسباني مدينة طرابلس واحتلها، رغم المقاومة الشديدة التي أبداها الأهالي".

وتابع: "ورغم سقوطها إلا أن حركة المقاومة الشعبية استمرت، وضرب المقاومون حصارًا حول طرابلس، مما اضطر الإسبان فيما بعد لتسليمها إلى فرسان القديس يوحنا الصليبيين (فرسان مالطا)، عام 1530".

وأردف: "استنجد الأهالي المقاومون بالسلطنة العثمانية لإنقاذ بلادهم وتحريرها، ومن تلك اللحظة دخلت ليبيا طورًا جديدًا في تاريخها، حين بدأت العلاقة المباشرة بين الأتراك والليبيين".

وشدد على أن "العثمانيين ساهموا في تقويض النفوذ الصليبي في مرحلة مبكرة في شمال أفريقيا، فخاضوا عدة معارك ألقوا الرعب من خلالها في قلوب الإسبان، ودمروا أسطولهم في أكثر من موقعة، كان أكثرها بقيادة خير الدين باربروسا".

وفد ليبي يطلب العون

الصلابي أفاد بأن "المصادر التاريخية ذكرت أنه، وبعد احتلال الإسبان لطرابلس الغرب، قام وفد من مدينة تاجوراء (الليبية) بالسفر إلى إسطنبول عبر البحر، طالبًا النجدة من السلطان العثماني سليم الأول (1470: 1520) ضد الغزاة الصليبيين".

وأردف: "عندما وصل الوفد إلى عاصمة العثمانيين سألهم الأتراك عن المكان الذي قدموا منه، فأجابوهم بأنهم من طرابلس الغرب، وأنهم قدموا ليلتمسوا عون السلطان العثماني لهم في تحرير بلادهم، فاستقبلهم السلطان بحفاوة وأصغى إليهم، وترجم بينه وبينهم مراد آغا، الذي كان يتقن اللغة العربية".

وتابع: "فيما بعد أعاد السلطان سليمان القانوني (1494: 1566) الوفد بصحبة مراد آغا نفسه، واعترف به واليًا على غريان (في ليبيا)".

وشدد على أن "هذا ما يثبت أن قدوم العثمانيين إلى سواحل شمال أفريقيا، سواء في الجزائر أو تونس أو ليبيا، كان بناء على طلب ورغبة من السكان المحليين، الذي وجدوا في السلطان العثماني نصيرًا وسندًا لهم ضد الغزاة الصليبيين".

واستطرد: "الدخول العثماني لليبيا كان بطلب شعبي، وذلك بدعوتهم (الليبيون) لهم أولًا (العثمانيين)، ثم مساعدتهم في حربهم ضد الإسبان وفرسان مالطا، الذين حلوا محل الإسبان عام 1530، ثم قبول حكمهم وسيادتهم على كامل البلاد الليبية (1551: 1911)، فهو ليس احتلالاً كما ادعى البعض".

واستطرد: "فلم ينكر قدوم هذا الوفد التاجوري إلى إسطنبول سوى بعض المستشرقين المعروفين بعدائهم للدولة العثمانية وللمسلمين عمومًا".

إصلاحات عثمانية

عن العلاقة لاحقًا بين العثمانيين والليبين، قال الصلابي: "بعد تحرير طرابلس أصبحت رسميًا ولاية تابعة للدولة العثمانية، تحت اسم طرابلس الغرب، لتمييزها عن طرابلس الشام".

وأردف: "في 1864، وبعد الإصلاحات الإدارية استبدلت الإيالة بولاية طرابلس الغرب، وبهذا بدأ عصر الولاة العثمانيين في ليبيا، وبلغ عددهم حتى بداية عهد القرمانليين أربعة وأربعون واليًا".

وأضاف أنه "من محاسن دخول العثمانيين ليبيا هو دورهم في تشكيل نواة الدولة الحديثة المركزية في ليبيا، فقد كانت ليبيا تُحكم بشكل صوري من قبل الأسر الحاكمة المجاورة، كالفاطميين والموحدين والحفصيين والمماليك، بينما يكون الحكم الفعلي للقبائل والعشائر المحلية المنتشرة في طول البلاد وعرضها".

وتابع: "بعد الدخول العثماني أصبحت إدارة ليبيا إدارة مركزية فعلية عن طريق والٍ يعينه السلطان العثماني مباشرة، ويحظى بدعم أمراء الجيش العثماني، وكان أولهم مراد آغا، واستمر الحكم على هذا النظام إلى 1711، مع استلام أحمد باشا القره مانلي الحكم، مؤسسًا لسلالة حاكمة من نسله تحكم ليبيا باسم الباب العالي".

كما "أدخل العثمانيون ما يعرف بقوانين التنظيمات، وهي مجموعة من القوانين الإصلاحية الاقتصادية والإدارية، إلى نظم الإدارة والحكم في ليبيا، فأحدثوا تغييرات عميقة في البلاد"، وفق الصلابي

وأوضح أن العثمانيين "عمدوا إلى تقوية سلطتهم المركزية، مما دعم الاستقرار، فازدهرت الحركة التجارية والزراعية ونمت المدن، وزاد عدد سكان المدن من البدو والرحل، وعمل العثمانيون على تطوير القطاع التعليمي، فكونوا نخبًا متعلمة وفق النموذج التعليمي والثقافي العثماني".

واستطرد: "ظلت ليبيا خالية من المدارس العامة والتعليم النظامي، وكان يُعتمد على نظام الكتاتيب، لكن الحكومة العثمانية عمدت إلى إنشاء مدارس نظامية وفق النظام الحديث في طرابلس وبنغازي ودرنة".

وتابع: "أنشأ العثمانيون، في 1899، مدرسة الفنون والصنائع، وكان يديرها ضابط برتبة يوزباشي، لتعليم أبناء الأيتام وبناتهم الحرف والصناعات اليدوية".

وأردف: "كما أنشأ العثمانيون مكتب الرشيدية في طرابلس، لتخريج الضباط العسكريين، والذين (كانوا) يُرسَلون بعد تخرجهم إلى إسطنبول لاتمام تحصيلهم في الكلية العسكرية هناك".

كما "تم إنشاء المكتب السلطاني للتعليم العالي، ومدرسة الزراعة بسيدي المصري، ومدرسة المعلمين العليا بطرابلس، وقبيل الغزو الإيطالي (1911: 1951) كان عدد المدارس الابتدائية في ولاية طرابلس 166 مدرسة، وكانت تُعرف هذه المدارس باسم رشدية مكتبي"، بحسب الصلابي

تشجيع الصحافة

استعرض الصلابي مستحدثات وإصلاحات أخرى تتعلق بحرية الصحافة والطباعة، بقوله: "تشير الأبحاث والدراسات إلى أن تاريخ أولى المطبوعات كان بعد بضع سنوات من (بداية) حكم العثمانيين لليبيا للمرة الثانية، وتحديدًا في 1866، حيث أُصدرت أول صحيفة باسم طرابلس الغرب، وهي أقدم جريدة في ليبيا كلها".

وأضاف: "شجع العثمانيون الصحافة، فكانت تصدر في طرابلس ثماني جرائد أسبوعية، واحدة منها باللغة التركية، وكانت تصدر مجلة علمية أدبية شهرية كان يحررها ويصدرها محمد داود بك باللغة العربية، وجُلبت مطبعتان كبيرتان إلى البلاد، إحداهما مطبعة مدرسة الصنائع، والثانية مطبعة الحكومة".

ازدهار عمراني

الازدهار في ليبيا تحت حكم العثمانيين امتد أيضًا إلى مجال العمران، فوفق الصلابي "شيد العثمانيون، خلال عهدهم الأول والثاني، الكثير من المساجد والقلاع والقصور والمباني الحديثة، وأنشأوا الطرق والأسواق، وبعضها لا يزال يحمل أسماء ولاتهم إلى اليوم".

وزاد بقوله: "ما زال برج الساعة المشهور في البلدة القديمة ينطق بعناية واهتمام العثمانيين بالإنشاء والتعمير، كما أن تاريخ إنشاء أحياء أبي الخير وميرزان وشارع الزاوية والعزيزية في طرابلس (يعود إلى) ذلك العهد".

وأوضح أن "الأتراك العثمانيين كانوا أول من مد خطوط البرق، فوصلت بين أجزاء البلاد حتى مرزق في أقصى الجنوب، كما أنشأوا المواصلات البريدية بين المدن والقرى".

وتابع: "بعد استعادة العثمانيين ولاية طرابلس من القرمانليين، ووضعها تحت حكمهم المباشر، عام 1835، أدخلوا العديد من الإصلاحات في المجالات الإدارية والسياسية والاقتصادية، فأُدخل نظام المجالس الإدارية والإصلاحات القضائية والتعلمية، وأسسوا محاكم الأحوال

الشخصية والجنايات".

وختم الصلابي بأن هذه "الإصلاحات العثمانية أدت إلى ظهور نخبة جديدة من المثقفين السياسيين المنخرطين بالمشروع التحديثي العثماني (...) فأدخلوا أدوات عمل جديدة إلى ليبيا، حيث أنشأ شبان طرابلس جمعيات سياسية وعلمية، منها جمعية فوائد ونصائح خيرية في طرابلس، عام 1882".